القيمة العلمية لمخطوط:
مناقب أبي عبد الله الشريف التلمساني وولده عبد الله

د/ قندوز ماحي
جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ومن والاه، وبعد:

فإنَّ الدَّارس لتاريخ الجزائر تستوقِفُه مشكلَة المصادر والمراجع التي تُؤَرِّخُ لرجالِه وعلمَائِه؛ بسبب الإهمَالِ الذي دَرَجَ عليه علماء المغرب عمُوما والجزائر خُصُوصَاً؛ من ازدرَاء النَّفس وعدم الاهْتِبَال بالعلماء والنُّجباء؛ وقد صوَّر لنا الإمام السَّنُوسي التِّلِمْسَاني هذه الظاهرة؛ بقوله - فيما ينقلُه عنه ابنُ مريمَ التلمساني: "وليكن اعتنَاؤُكَ يا أخي بمن تأَخَّر من الصالحين، وخُصُوصَاً من أهل بلدك حلولا بالسُّكْنَى والدَّفنِ أكثر من اعتِنَائِك بمن تَقَدَّم منهم؛ وذلك لأوجه:... الرابع: أنَّ فيه تخلُّصَاً ممَّا عليه أهل الزمان من القدح بمن عاصرهم من الصالحين، أو عاصرهم من بعض ذريتهم، والقرابة إليهم، وهذا خُلُقٌ ذميم جدا قد نال منه أهل المغرب، خصوصا أهل بلدنا حظا أوفر مما نال غيرهم؛ ولهذا لا يجد أكثرنا اعتناء بمشايخنا ولا يُحْسِنُ الأدب معهم، بل يستحيي

كثيرٌ منَّا أن يَنْتَسِبَ بالتَّلْمَذَة لمن كان خاملا، ويكون جُلُّ انْتِفَاعِه بذلك الخَامِل، فيَعْدِلُ عن الانتساب إليه إلى منْ هُوَ مشهور عند الظَّلَمَة، وربما نَسَبَ بعض من لا خلاَق له العداوة والسَبَّ والأذيَّة لمن سبقت شيخوخته عليه ولا يُبَالِي وذلك مذموم جدا، وإن لم يكن شيخه من الصالحين وهو الهلاك دنيا وأخرى؛ ويرحم الله المشارقة ما أكثر اعتنائهم بمشايخهم، وبالصالحين منهم خصوصا"[1].

ويقول الأستاذ عبد الوهاب بن منصور في نفس الظاهرة:

"وعفا الله عن أهل المغرب الأوسط، فإنّي ما أظُنُّ على وجه البسيطة أمَّةً أتْعَسَ منهم في آدابها حَظّاً، أو أعثر منهم في تاريخها جِدّاً، فقد أهْمَلُوا أئِمتهم وأعلامَهُم، وزَهِدُوا في أدبهم وحضارتهم، ونَسُوا عن عمد عُظَمَائَهُم وكُبَرَاءَهم، ونَفَضُوا اليَدَ مِنْ مشاهير عصورهم، ومَسَاعِيرِ حروبهم، ولم يَذْكُرُوا بالفَخَارِ والإكْبَارِ عُلَمَاءَهم وأُدَبَاءَهُم، مثلما تفعل الأمم الأخرى، حتى أَنْكَرَ عليهم الخصوم الماضي المَجِيدَ، والشَّرَفَ التَّلِيدَ، وقالوا لهم أنتم رِعَاعٌ لا ماضي لكم ولا حاضر، ولن يكون لكم بنَتَائِجِ المَنْطِقِ يوم بَاهِرٌ، ولا مُسْتَقْبَلٌ زاهر... والأمم - شرح الله صدري وصدرك بالعلم، ونَوَّرَ عقلي وعَقْلَكَ بالفهم- لا تَبْنِي اليوم الباهر والمستَقْبَلَ الزَّاهِرَ، إلاَّ على ما يُضَارِعُها من أَمْسِ مَجْدٍ مُضِيءٍ، وماضي فَخَارٍ بالعَظَائِم مليء، وما كان في هذا وذاك من حضارة رفيعة العِمَادِ، ومَدَنِيَّة طويلة النِّجَادِ، وقادة دَوَّخُوا الممَالِكَ، وزعماء وَلَجُوا من أَجَلِ شَرَفِ أَوْطَانِهِم أَوْعَرَ المَسَالِكِ، وعُلَمَاءَ تَثْلَجُ الصُّدُورُ بالتَّعَرُّف على آثارهم، وأُدَبَاءَ تَقَرُّ

العيون بالنَّظَرِ إلى بَنَاتِ أَفْكَارِهِم، ومُحَقِّقِينَ هَذَّبُوا العُلُومَ وأَقَامُوا قَنَاتَهَا، ومُدَقِّقِينَ صَقَلُوا الفُنُونَ مما عَلَقَ بها من صَدِّ الأَوْهَامِ، وزِنْجَارِ الأساطير، لهذا نرى الأمم الحيَّةَ تَتَعَلَّق لبلُوغ هذا المَرَامِ، حتى بخيوط الرُّتَيْلاَء، وتَجْمَعُ له غبار الهواء، وتُخْرِجُ من العَدَمِ وُجُوداً، وتَنْشُرُ من الخِرَقِ البَالِيَة أعلاما وبُنُوداً، وتَبْنِي للنَّاشِئَة من الحَبَّاتِ قِبَاباً، لتهيئ لاعتِزَازِهَا بأُمَمِهَا وأَوْطَانِهَا وَسَائِلَ وأسبابا"[2].

والعامل الثاني الذي لا يمكن تَخَطِّيه كذلك هو عامل الاستعمار الفرنسي الغاشم، الذي حاول القضاء على مقوّمات الشخصية الجزائرية المسلمة العربية، من خلال نهب الموروث الثقافي الجزائري، أو حرقه وإتلافه حتى لا يتَّصلَ الخلف بميراث السلف؛ ويبقى هذا الشعب متوَجِّها قِبْلَة الثقافة الفرنسية والعادات الغربية؛ وأصدقُ دليل على ذلك ما حدث مع الأستاذ أحمد توفيق المدني، لما أراد نشر مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب الأشراف في الجزائر؛ حيث قال في مقدِّمَتِها: "إنَّنِي أَفِي بعهد قطعتُه لسيِّدٍ فاضل من رجال الجزائر القدماء؛ هو الشيخ سيدي محمود الشريف الزهار نقيب الأشراف الأخير، عندما تسلَّمت منه هذه المخطوطة من الكتاب، وانتَزَعْتُها انتزَاعَاً من يد مسيو ميرانت مدير الأمور الأهلية بالولاية العامة بالجزائر؛ لأنَّه كان يُلِحُّ علَى نقيب الأشراف في تسْلِيمِه هذه النسخة من أجْل مطالَعَتِها، والاستيلاء عليها وإعدَامِها أو الاحتفاظ بها عنده، وأَقْنَعْنَاه بأنَّ

تسليم الكتاب لميرانت إنَّما هو إعدام لاسم جدِّه الحاج أحمد وإتلافٌ للأمانة العلمية"[3].

أمَّا الذين كتبوا عن التَّراجم الخاصة لأشخاص بأعينهم أو مع غيرهم؛ فنذكر على سبيل المثال:

1- المواهب القدسية في المناقب السنوسية، لأبي عبد الله محمد بن عمر الملالي التلمساني[4].

2- المناقب المرزوقية؛ لأبي عبد الله محمد بن مرزوق التلمساني[5].

3- المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لابن مرزوق التلمساني[6].

4- ترجمة الشيخ أحمد بن يوسف المليانى، لمحمد الصباغ القلعي.

5- تاريخ علي باي، لأحمد بن عمار.

6- توشيح طراز الخياطة، لمحمد العربي بن مصباح، ترجم فيه لشيخه محمد بن علي الشريف[7].

7- تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، لمحمد باشا بن الأمير عبد القادر.

8- ياقوتة النسب الوهاجة، لأبي حامد المشرفي، ترجم فيه لحياة وتصوف الشيخ محمد بن علي المجاجي[8].

والمخطوط محلُّ الدراسة بين أيدينا؛ كنت أتابع أخباره منذ مدة ليست بالقريبة، فقد عثرت على نسخة منه بخزانة الحرم المدني، بعنوان القول المنيف في ترجمة أبي عبد الله الشريف، وحصلت على نسخة منها فوجدتها بغير هذا العنوان؛ ثم يَسَّرَ الله نسخة مغربية أخرى بعنوان مناقب الشريف أبي عبد الله وولديه؛ ولكنَّه تنقُص عن الأولى ببابين أو ثلاثة؛ فجُمِعَ الخاطر على قراءتها وخدمتها وتيسيرها للقرَّاء؛ وهذه المداخلة بيان لأهمية الكتاب وقيمته العلمية وتحليل لمضمونه وتعريف بمؤلِّفه، وإن كان لهذه اللحظة لا يزال لنا مجهولا، وكذا نتعرض لأهم مضامينه ومحتوياته.

أولا. عنوان المخطوط: وجدنا على غلاف النسخة المغربية: هذا العنوان: مجموع فيه مناقب سيدي أبي عبد الله الشريف وولديه سيدي عبد الله الغريق والولي الصالح سيدي أبي يحيى عبد الرحمن؛ في حين أنَّ النسخة المدنية مبتورة بورقة من بداية المخطوط؛ ولم نعثر على ذكر لعنوانها في أثناء المخطوط ولا في آخره؛ وكتب من فهرسها عنوان: القول المنيف في ترجمة أبي عبد الله الشريف؛ وهو وَهْمٌ.

ثانيا. وصف النسخ الخطية:

1- النسخة المغربية؛ المحفوظة في مؤسسة عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء بالمملكة المغربية؛ وهي كما سبقت الإشارة

إليه مبتورة بورقة واحدة هي بداية المخطوط، تحتوي على 101 لوحة من وجه واحد.

- عدد الأسطر في كل لوحة ما بين 18 و 19 سطرا؛ كتب بخط مغربي جميل ومقروء؛ وبعض الكلمات بالحبر الأخضر؛ وكذلك التزويق والتنميق في العناوين الكبيرة، وبداية العناوين الكبيرة كلُّها بالحبر الأحمر وكذا الأسود الكبير.

- عليه تصحيحات بالهامش، وطرر وفوائد، مما يدل على أنَّه مراجع ومقروء من ناسخه؛ لأنه بنفس النوع من الخط واللون والحبر.

- أما الفواصل بين الجمل فهي نقطتان وفاصلة من فوق.

- حالته جيدة؛ لا خرم فيه ولا اهتراء؛ وبعض اللوحات عليها شريط لاصق؛ وببعضها بياض في بعض الكلمات.

- لا يوجد فيه ذكر لاسم المؤلف ولا الناسخ ولا مكان ولا سنة النسخ.

اللوحة الأولى والأخيرة من نسخة مركز عبد العزيز آل سعود

الدار البيضاء المغرب

2- النسخة المدنية: وهي من محفوظات خزانة الحرم المدني بالمدينة المنورة، رقم حفظها: 133,80.

- محفوظة ضمن مجموع، يبدأ كتاب المناقب من اللوحة 106 وينتهي ب 182؛ عدد لوحاته 76 لوحة من وجهين.

- عليه ختم تمليك عبد العزيز الوزير التونسي في آخر لوحة منه؛ وسقط منه الوجه الأول من اللوحة الأولى أي جزء من مقدمة الكتاب.

- مسطرته ما بين 21 إلى 22 سطرا؛ خطه مغربي مقروء إلى حد ما؛ العناوين والأبواب وبداية الفقرات بخط أسود كبير، وتختلف اللوحات من حيث جودة الخط وتنسيق الفقرات والإسراع في الكتابة.

- بعض اللوحات فيها بياض؛ وفي بعضها خرم وتآكل، قام المسؤولون على المكتبة بترميمه.

- لا يوجد فيه ذكر لاسم المؤلف ولا الناسخ ولا مكان ولا سنة النسخ.

اللوحة الأولى والأخيرة من النسخة المدنية

ثالثا. صاحب المخطوط:

المثبت على اللوحة الأولى من النسخة المغربية؛ أن مؤلفه هو سيدي أحمد بن أبي يحيى بن أبي عبد الله الشريف الحسني التلمساني؛ وترجمته كما يلي: "العالم العلامة المحقق المفسِّر ابن أبي يحيى بن الإمام الأوحد العلامة التلمساني، أخذ عن الإمام الحفيد ابن مرزوق، ووقع بينهما مراجعة وبحث في مسألة المتيمِّم يدخل في الصلاة، ثم يطلع عليه رجل بالماء؛ كما نقل كلامهما في ذلك الونشريسي في معياره، ووفاته سنة 895هـ"[9]، كما أورد له الونشريسي في المعيار المعرب مجموعة من الفتاوى في مسائل فقهية متنوعة[10].

ولم تذكر كتب التراجم التي رجعنا إليها أنَّه ألَّف كتابا في ترجمة الشريف التلمساني وولديه؛ ومما يقوي نظرية أن لا يكون

كاتب هذا المؤلَّف من أحفاد الشريف أبي عبد الله وعائلته؛ أنه لم يُشِرْ لا من قريب ولا من بعيد إلى صلة القربى بينه وبينهم، أمَّا الصلة العلمية فقد ذكرها في عدة مناسبات؛ فأبوه كان تلميذا عند الشريف أبي عبد الله ثم عند أولاده؛ والمؤلِّف جلس في مجالس الشريف أبي عبد الله في صغره؛ كما أنَّه كان يحلِّي أبناء الشريف بشيوخي ووالدهم بشيخ شيوخي؛ وأنه كتبه إرضاء للملك أبي حمو موسى الزياني، الذي أراد تخليد ذكر هذه العائلة العلمية.

كذلك جاء في اللوحة الثانية من النسخة المغربية بعد لوحة العنوان، بعد البسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم؛ عبارة: "صاحب هذا التأليف العالم الأفضل سيدي أحمد ولد سيدي أبي يحيى ولد أبي عبد الله الشريف فهو حفيد أبي عبد الله" وذلك بخط يختلف عن خط الكتاب؛ وحتى السنة التي مات فيها أحمد بن أبي يحيى بن أبي عبد الله الشريف الحسني التلمساني؛ وهي سنة 895هـ تُبْعِدُ فرضية المعاصرة؛ لأنَّ المدة أكثر من قرن من الزمن.

وقد ذكر المترجمون للشريف أبي عبد الله التلمساني كتابا لأحد التلمسانيين لم يحدِّدوا اسم مؤلفه؛ قام الونشريسي باختصاره في جزء سماه: القول المنيف في ترجمة الإمام أبي عبد الله الشريف؛ وقام بتلخيصه أحمد بابا التنبكتي، ونقله عنه ابن مريم المديوني[11]، كما أنَّ النُّسخة المحفوظة بالحرم المدني مفهرسة تحت

اسم: القول المنيف في ترجمة الإمام أبي عبد الله الشريف للونشريسي؛ وهذا خطأ من المفهرس.

والقدر المشترك أنَّ مؤَلّفَ هذا المخطوط تلمسانيٌّ عاصرَ الشريف أبي عبد الله ودرَس عليه وعلَى أولاده، ونقل من أخبارهم ما رآه وما سمعه من والده، الذي كان كذلك أحدَ تلامذة الشريف وأولاده.

رابعا. ترجمة الشريف أبي عبد الله وولديه:

أ- ترجمة الشريف أبي عبد الله (ت 771هـ/1370م):

محمد بن أحمد بن علي الحسني الإدريسي العَلْوِيني التلمساني؛ انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي بالجزائر والمغرب قاطبة؛ رحل إلى فاس مع السلطان أبي عنان المريني، ثم اعتقله شهرا وأطلق سراحه سنة 756هـ، دُعِيَ إلى تلمسان بعد تولّي أبي حمو موسى بن يوسف، وتزوج بابنته، وبنى له مدرسةً بتلمسان يُدَرّس فيها.

ألَّف: مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، وشرح جمل الخونجي، وله مجموعة من الفتاوى ذكرها الونشريسي في معياره والمازوني في نوازله[12].

ب- ترجمة عبد الله بن الشريف التلمساني (ت 792هـ/ 1390م):

عبد الله بن محمد بن أحمد بن علي الإدريسي الحسني التلمساني؛ من كبار علماء تلمسان، كان حافظا للغة والغريب والشعر وأخبار العلماء ومذاهب الفرق؛ أخذ عن أبيه وعن أبي عبد الله بن أبي زيد وابن حياتي والخطيب ابن مرزوق وأبي عمران العبدوسي وأحمد القباب، رحل إلى الأندلس ودخل غرناطة وأقرأ بها؛ توفي غرقا في البحر أثناء عودته من مالقة إلى تلمسان، له فتاوى في المعيار والمازونية[13].

ج- ترجمة أبي يحيى عبد الرحمن الشريف التلمساني (ت 826هـ/ 1424م):

عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني، قرأ على والده التقصي ومختصر ابن الحاجب الأصلي ومثارات الغلط والموطأ، وبعد وفاة والده أخذ عن أخيه عبد الله، وعن العالم أبي عثمان العقباني وابن حياتي الغرناطي وأبي القاسم بن رضوان، وعنه ابن زكري التلمساني والجادري وأبو عبد الله القيسي[14].

ذكر الونشريسي بعض فتاويه ومسائله الفقهية[15].

خامسا. أبواب الكتاب:

أ. الاستفتاح؛ حيث ذكر فيه سبب تأليف الكتاب.

ب. الباب الأول في ذكر نسبه ونشأته ومولده.

ت. الباب الثاني في طلبه للعلم واجتهاده وشيوخه ورحلته وثناء العلماء عليه.

ث. الباب الثالث في خَلْقه وخُلُقه وهيئته وسيرته.

ج. الباب الرابع في علومه وتواليفه وفوائد من أجوبته.

ح. الباب الخامس في مهابته وحفظه وعلو رتبته.

خ. الباب السادس في زهده وتدينه ومروءته وإمامته.

د. الباب السابع في تمسكه بكتاب الله وسنته.

ذ. الباب الثامن فيما اختصه الله به من الكرامات التي لا تدخل تحت الاكتساب.

ر. الباب التاسع في وفاته ومرائي له في حياته وبعد موته.

ز. الباب العاشر في ذكر خلفه وذريته وما جنى من غرس ثمرته.

قال في مقدمته: "وابتدأت بالتعريف بالشيخ الإمام أبي عبد الله أولا ثم بولديه شيخنا أبي محمد عبد الله وشيخنا أبي يحيى عبد الرحمن ثانيا، ورتبت الكتاب في عشرة أبواب، تضمنت جملة من المناقب والآداب"[16].

سادسا. سبب تأليف الكتاب:

ذكر المؤلف في مقدمة كتابه أنه ألَّفه للسلطان أبي زيان محمد بن أبي حمو موسى، لما كان محبا للعلم وأهله التمس من الفقيه أبي يحيى بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني، فاصطفاه وقرَّبه وأخذ عليه علوم الحقيقة، وأراد التعريف بمناقب

هذه العائلة العلمية وتخليد شمائلها، وأن يطَّلِعَ على أسانيدهم ويتعرَّف على سيرتهم؛ فانتدب المؤلف لكتابة مناقب وسيرة عائلة الشريف التلمساني؛ قال في مقدمته: "فابتدرت لمراده واستعنت بالله في نظمه وإيراده وفاء بحق نعمته ورجاء في عرفان شيخ أشياخي وبركته فجمعت من ذلك دررا تشهد النفوس بنفاستها، وغررا تذكرها القلوب بحاستها... ورصعته بفرائد من فوائد كلامه وعجائب من غرائب فتاويه وأحكامه"[17].

سابعا. القيمة العلمية للمخطوط:

ذكرنا أمثلة مما أَلِّفَ في المناقب الشخصية لعلماء الجزائر؛ وهذا المخطوط يكتسي أهمية كبيرة من حيث أنَّه يترجم لعائلة علمية معروفة في تلمسان خاصة وحتى في العالم العربي والإسلامي، حيث ملأت شخصية الإمام أبي عبد الله الساحة العلمية والثقافية، خاصة تأليفه الفريد والنفيس في علم أصول الفقه والتخريج الفقهي: مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول؛ هذا من جهة، ومن جهة ثانية قلَّة المصادر التي تُعَرِّفُ بعلماء الجزائر وتراجمهم الشخصية؛ وحتى كتب التراجم العامة قليلة وعزيزة؛ والعثور على مثل هذه الكتب وتحقيقها وإخراجها للقراء من الواجبات العلمية الملقاة على عاتق الباحثين الجزائريين، في خطوة لبناء الثِّقَة والاعتزاز في نفوس أجيالنا المهزومة فكريا وعلميا، حتى إذا بحثوا عن علمائهم وبناة حضَارَتِهم؛ قالُوا:

هَؤُلاَءِ آبَائِي فائْتِنِي بمثْلِهِم إذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ المجَامِعُ

ثامنا. قراءة في موضوعات المخطوط:

أ- جاءت المقدمة طويلة ومسجوعة -كما هو المخطوط بكامله- على عادة كتب وسير المتقدِّمِين، وكُتَّاب المُلُوك والأمراء، التي استغرقَت من الكتاب حوالى اللوحتَيْنِ، بَيَّنَ فيها سَبَبَ تأليف الكتاب ولمن ألَّفَهُ؛ وكذا أبواب الكتاب وتقسيمَاتِه[18].

ب- وفي الباب الأول ذكر نسب الشريف التلمساني وأوصَلَه إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنَّه من السلالة الإدريسية الحسنية، وأنه ولد سنة 716 هـ، من بيت علم وشرف ومجد، فطلَبَ العلم وحصَّلَه حتى انتهت إليه إمامَة المالكية بالمغرب، كما ذكر دخُول جدِّه إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي إلى المغرب سنة 171هـ؛ حيث استقل بإمامة المغرب الدينية والسياسية حتى وفاته سنة 175هـ، وخلفه ابنه إدريس الأصغر الذي بنى مدينة فاس، حيث بقي حكمهم بها أكثر من 200 سنة، كما عاد الملك إلى بني حمود من الأدارسة في الأندلس؛ ثم رحلت بقيتهم فنزلوا تلمسان، ومنهم تناسل الشريف أبو عبد الله وعائلته.

تعلَّم الشريف أبو عبد الله القرآن على الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن يعقوب، وكان خاله يتفرَّسُ فيه النَّجَابَة والعلم[19].

ج- وفي الباب الثاني ذكر طلبه للعلم واجتهاده وشيوخه ورحلاته؛ حيث بدأ الإقراء في سن الحادية عشر؛ فأخذ عن ابني

الإمام أبي زيد وأبي موسى وعن القاضي أبي عبد الله محمد بن هدية القرشي والمجاصي والقاضي أبي عبد الله التميمي وأبي موسى المشذالي وغيرهم.

ولما جاء إلى تلمسان الشيخ أبو عبد الله الآبلي التلمساني قادما من المشرق، حيث زار العراق؛ انتفع به الشريف أبو عبد الله انتفاعا كبيرا.

ثم رحل الشريف أبو عبد الله إلى تونس سنة 740هـ، ودخل بجاية، وجالس علمائها، وتكلَّم عن مسألة عند ابن الحاجب؛ فقالوا له: إنَّ ابن الحاجب عندنا اليوم يقرؤُه الصبيان، فسألَهم فيه أسئلَة عَجَزُوا عنها؛ وهذه الرحلة كانت قبل قدوم الآبلي إلى تلمسان.

وبتونس أخذَ عن ابن عبد السلام شارح كتاب ابن الحاجب الفرعي ولازمه وانتفع به كثيرا، وذَكَرَ المؤلِّف حوارا ونقاشا دار بينهما حول الذِّكر اللِّسَاني والقلبي، وسكت الشريف تأدُّبَاً مع شيخه ابن عبد السلام، وفي الغد أمرَه بالجلوس إلى جنبه وسألَه عن بلده، وعاد إلى تلمسان بعد أشهر من القراءة على ابن عبد السلام[20].

أ- أما الباب الثالث فذكر جملة من أخلاقه وسيرته، وقد أسبغ عليه من جميل الأخلاق وحَسَنِ الخلال الشيء الكثير؛ وكذلك محبته لطلبة العلم، واعتزازهم به وإكرامه لهم، وحفظ ماء وُجُوهِهِم وعدَمِ إهانَتِهم، ثم ذكر جملة من المشايخ الذين مَدَحُوه

كابن عبد السلام التونسي وأبو عبد الله الآبلي وابن عرفة الورغمي وابني الإمام التلمسانيين.

وذكر امتناع الفقيه أبا عبد الله المقَّري من إقراء التفسير في حضرة الشريف التلمساني، مع إصرار السلطان أبي عنان عليه.

وثناء الفقيه أبي عبد الله بن مرزوق وأبي عمران موسى العبدوسي الفاسي على الشريف[21].

ب- أمَّا الباب الرابع فذَكَرَ علوم الشريف وتآليفه وفوائد من أجوبته؛ فتكلَّم عن مجلِسِه الذي كان يحضرُه كبار العلماء والملوك والصَّالحين، ويُعْطِي كلَّ واحد على حسب علمه ومستواه الفكري، كان عالما بالقرآن وعلُومه والحديث وفنُونه.

وذكر سؤالا من السلطان أبي حمو أمير المسلمين عن حديث: "حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرَّة عيني في الصلاة"، وذكر جواب الشريف على طوله؛ أتَى فيه صاحبه بإشارات صوفية، وأحاديث نبوية وتحليلات فقهية كبيرة، كما كان عالما بأصول الدين، منتصرا لمذهب السلف وأهل السنة، عالما بالفرق ومذاهبهم.

وقد وَجَّه إليه الفقيه أبو زكريا يحيى الرَّهُوني المصري من بلد تُوزَر أسئلة قام الشريف بالإجابة عنها؛ وذكر أجوبته بكاملها؛ منها سؤال حول القضية الموجبة والسالبة عند المناطقة، ومسألة

حول قِدَمِ العالم عند الفلاسفة، ومسألة العلم بوجود الله تعالى وتوقُّفِه على إبطال التسلسل، ومسألة حول كلام ابن الحاجب ورجوع الأدلة إلى الكلام النفسي، كما وَصَفَه المؤلف بأنَّه كان من أئمة فقهاء المالكية المجتهدين.

وذكر وشاية بعض فقهاء فاس بالإمام الشريف إلى السلطان أبي عنان المريني، وكيف وبَّخَهم لما ظهر له علمه وتمكنه.

وكان عالما بلسان العرب وشعرهم وغريب لغتهم وأمثالهم وأخبارهم وأيامهم وحروبهم؛ كما كان عالما بالمنطق والحساب والفرائض والهندسة والهيئة ومعرفة آلات التنجيم والمساحة وعلم الموسيقا والطب والتشريح والفلاحة؛ ألف شرحا على جمل الخونجي، وكتابا في المغالطات، وآخر في القضاء والقدر؛ وكان قليل التأليف وجلُّ اعتنائه بالتعليم والتفقيه[22].

أ- أما الباب الخامس فتطرَّق فيه إلى مهابته وحفظه مناصب العلم؛ فذكر قصصا يرويها عن والده في توقير الملوك لأبي عبد الله واحترامه، وكيف كان يعطي المجالس حقَّها، ويُقَسِّمُ أوقات تدريسه لطلبته بالساعة الرملية، وكان يُحضِّرُ لدرسه من كتب كثيرة.

وكان أهل الأندلس يجلُّونَه ويَعْرِفُون قَدْرَهُ، وكان أبو عبد الله محمد بن الخطيب السلماني كلما ألَّفَ كتابا بعثه إلى الشريف أبي عبد الله ليكتب عليه من خطه، كما كان الفقيه أبو سعيد بن

لب الغرناطي كلَّما أشكَلَت عليه مسألة كاتبه ليجيبه عليها، وبعث إليه بمجموعة من الأسئلة أجاب عنها وأوردها المؤلف في كتابه هذا[23].

ب- وفي الباب السادس ذكر زهده وصون عرضه ومروءته وتجنبه للملوك والأمراء، وسجنه من طرف السلطان أبي عنان، وشفاعة الشيخ يعقوب بن علي، وإطلاق سراحه واعتذاره له[24].

ت- وفي الباب السابع ذكر تمسُّكَه بالكتاب والسنَّة، ومسائل أجابَ فيها عن بعض الإشكالات في كتاب الله، وكذلك مسألة الشرف من جهة الأم، وقد سبَقَه في ذلك القاضي أبو إسحاق بن عبد الرفيع التونسي، والفقيه أبو علي ناصر الدين المشذالي البجائي[25].

ث- الباب الثامن فيما اختصه الله من الكرامات، وذكر فيه ما اختصه الله به من الكرامات؛ حيث أورد مجموعة من الكرامات الربانية والمنح الإلهية التي حبا الله بها الشريف وهي حوالى 11 كرامة[26].

ج- وفي التاسع ذكر وفاته ومرائي رُئِيَت له في حياته وبعد وفاته؛ وذكر منها حوالي الأربع؛ ثم قيام ولده مقامَه، ولما كانت السَّنَةُ التي تُوُفِّيَ فيها بدأ الختمة الثانية من تفسير القرآن، وَصَلَ فيها إلى قوله تعالى: (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأنَّ الله لا

يضيع أجر المحسنين)، ومات بعد مرضه ب 18 يوما في منتصف ليلة 4 ذو الحجة 771هـ.

وذكر في آخره أنه لم يستقصي أخبار الشريف، وإنما اقتصر على ماسمعه من والده؛ لكونه صاحب الشريف كثيرا، ومازجه صغيرا وكبيرا، وحفظ من أقواله وأفعاله وعجائبه وأحواله؛ قال: "مع ما تلقيته من بنيه رضي الله عنهم في المجالس والمذاكرات وفي أثناء المحاورات، على أني أدركت الشيخ ورأيت وجهه السعيد، وعرفته وحضرت مجلسه صغيرا وسمعته..."[27].

ح- والباب العاشر والأخير خصَّصَه لولديه اللذان ورثا علمه وشرفه وعزَّه؛ الأول عبد الله الذي ولد سنة 748هـ، وتعلَّم العلم بفاس، وقرأ على ابن حياتي جمل الزجاجي وختم عليه المقرب لابن عصفور وكتاب سبويه وتسهيل ابن مالك، وقرأ على أبي عبد الله بن مرزوق جزءً من البخاري، وجلس مجلس أبيه بعد وفاته، ثم درس بالجامع الكبير بتلمسان، كما ذكر ورود مجموعة من الفتاوى من علماء بجاية؛ وقد سئل عن مسألة في أصول الدين وهي تعلق القدرة بالمحال؛ قال عنه: "وقد لازمته وقرأت بين يديه نحو ثلاثة عشر سنة، وخبرت سيرته المستحسنة فما رأيت ولا سمعت بمثله"[28].

أما أخوه أبو يحيى عبد الرحمن فقد ولد ليلة 19 رمضان 757هـ، أخذ العلم عن والده صغيرا، فقرأ عليه كتاب التقصي وكتاب ابن الحاجب الأصلي ومثارات الغلط وغيرها من الكتب، ولما

مات والده قرأ على أخيه عبد الله، كما قرأ على الشيخ أبي عثمان سعيد العقباني وعن ابن حياتي وأبي القاسم بن رضوان، وذكر سؤالا وجهه إليه صاحب الكتاب في تفسير قوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحَاً مُبِينَاً) الآية، واستطرد في شرح المغفرة ومعناها ومراتبها وأقسامها[29].

تاسعا. الملاحظات على المخطوط:

1- المخطوط يكتسي أهمية كبيرة كونه يترجم لشخصية جزائرية فذة؛ لها تاريخ علمي ورتبة عالية في الاجتهاد الفقهي والأصولي؛ وممن بلغ درجة الاجتهاد المذهبي في المذهب المالكي.

2- اللغة التي كتب بها المخطوط لغة عربية راقية سالمة من الأخطاء والعيّ والفهاهة، فيها من ألوان البديع وصنوف البلاغة الشيء الكثير؛ لاسيما وأن صاحب المخطوط -وإن كان مجهولا عندنا- قد تلقى العلم على أولاد الشريف التلمساني، وجلس مجلس والدهم وقرأ عليهم العلم، وكان يروي ما يكتبه عن والده الذي تتلمذ على الشريف التلمساني وعاصره؛ مما يجعل هذه الروايات قريبة من عصر صاحبها؛ فتحظى بالصحة والقبول.

3- كذلك يبرز المخطوط مدى عناية السلاطين الزيانيين والمرينين بالعلماء وبناء المدارس لهم وإجراء العطيات على طلبة العلم، وحضور مجالس العلماء وتوقيرهم.

4- يعطينا المخطوط صورة واضحة عن تلمسان وفاس وما جاورهما، وعن الأوضاع التي كانت في القرن الثامن الهجري وهو عصر ازدهار العلوم بالمغرب الأوسط وخاصة بتلمسان.

5- يوفر لنا المخطوط معلومات كثيرة عن علماء وسلاطين لم تذكرهم كتب التراجم والتاريخ؛ مما يحتم علينا البحث والتفتيش عن كتب المناقب والسير لنشرها وإخراجها إلى الوجود.

6- الطابع الصوفي في كتابات ومؤلفات هذه الحقبة بارزة في المخطوط حيث ذكر كرامات الشيخ وأولاده؛ وهذه النزعة كانت سائدة في تلك القرون؛ ولكن على تفاوت بينها.

7- المخطوط جمع كثيرا من المسائل الفقهية والإشكالات العقدية والمنطقية التي أجاب عليها الشريف التلمساني وولداه؛ لأنهم بلغوا درجة عالية من التبحر والاجتهاد في المذهب المالكي.

- الهوامش:

1 المديوني، محمد بن محمد ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م؛ ص6-7.

2 ابن منصور عبد الوهاب، رسائل أبي القاسم القالعي، دار ابن خلدون، تلمسان، ط 1، 1957م؛ ص4-5.

3 الزهار الحاج أحمد الشريف، مذكرات، دار البصائر، الجزائر، تحقيق: أحمد توفيق المدني، ط 2009م؛ ص17.

4 قام بتحقيقه الأستاذ علال بوربيق، وطبع مع أعمال الإمام السنوسي في احتفالية تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011م.

5 قامت بتحقيقه الأستاذة المغربية سلوى الزاهري، وطبعته وزارة الأوقاف المغربية سنة 2008م.

6 حققته الأستاذة الإسبانية ماريا خيسوس بقيرا، وطبعته الشركة الوطنية للنشر بالجزائر سنة 1981م.

7 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، الجزائر، ط 6، سنة 2009م؛ 359/2، 365/2، 7/ 436.

8 المرجع نفسه: 440/7.

9 التنبكتي أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، اعتنى به د/ عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب، طرابلس ليبيا، ط 2، 2000م؛ ص 123، البستان: ص 44، مخلوف محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، بيروت لبنان؛ ص267.

10 راجع: الونشريسي أحمد بن يحيى ، المعيار المعرب الجامع المغرب، تح: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 1، 1983م؛ 233/3.. 234، 224/4 حتى 229، 155/7.

11 نيل الابتهاج: ص432، البستان: ص 166.

12 نيل الابتهاج: ص 437، البستان: ص 164 حتى 184، الحفناوي محمد بن أبي القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، دمشق سورية، ط 2، 1985م؛

106/1، الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط 4، 1979م؛ 327/5.

13 نيل الابتهاج: ص 225، البستان: ص 177، نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، المكتب التجاري، بيروت لبنان، ط 1 ، 1971م؛ ص 105، المعيار المعرب: 394/1، 341/4، 235/8، 434/9.

14 نيل الابتهاج: ص 252، البستان: ص 129، شجرة النور الزكية: ص 251.

15 المعيار المعرب: 214/1، 250/2 . 550، 321/7 . 324، 158/11.

16 مخطوط الكتاب لوحة 2/ ب [النسخة المغربية]

17 المصدر نفسه: لوحة 107/ ب.

18 المصدر نفسه لوحة 106/ب، 107/ أ . ب .

19 المصدر نفسه: لوحة 107/ ب، 108/ أ . ب، 109/أ.

20 المصدر نفسه: لوحة 109/ ب، 110/أ . ب، 111/أ.

21 المصدر نفسه: لوحة 111/ب، 112/ أ . ب، 113/ أ . ب، 114/ أ . ب.

22 المصدر نفسه: 114/ ب حتى 130/ أ.

23 المصدر نفسه: لوحة 130/ ب حتى 139/ أ.

24 المصدر نفسه: لوحة 139/ ب ، 140/ أ . ب.

25 المصدر نفسه: لوحة 14/ أ حتى 155/ أ.

26 المصدر نفسه: لوحة 155/ أ حتى 157/ ب.

27 المصدر نفسه: لوحة 157/ ب حتى 161/ أ.

28 المصدر نفسه: لوحة 161/ أ حتى 167/ ب.

29 المصدر نفسه: لوحة 167/ ب حتى 182/ ب.